تجريم السلام

جو لوكارد

ساهمت مرة في ايقاف آريل شارون لثلاث ساعات.

في مطلع شتاء عام ١٩٧٩، كنا كثيرين في الشاحنتين اللتين أقلتانا إلى منطقة قريبة من مستوطنة إيلون موريه قرب نابلس حيث كنا ننوي التظاهر احتجاجاً على بناء المستوطنات في الضفة الغربية. كانت شاحنة محملة بالحصى لتصل في الوقت نفسه إلى وسط المستوطنة. أفرغت الشاحنة حمولتها في وسط الطريق الضيقة المؤدية إلى المستوطنة، وبقيت في مكانها. وقف المتظاهرون في صف طويل وراء الشاحنة.

لم يكن أحد قد تنبه إلى الأمر، لأن آريل شارون كان يزور المستوطنة في تلك اللحظة. بقي عالقاً هناك، وأمضى ساعات في سيارة ليموزين سوداء كنا نستطيع رؤيتها على بعد حوالى مئة متر. مكثنا هناك، متهللين، تحت رذاذ المطر، حتى وصل الجيش ليأمرنا بالمغادرة. فقزنا إلى باصاتنا لنعود إلى القدس. كان ذلك اللقاء الأقرب لي مع آريل شارون، الذي لا التقاء بيني وبين سياساته.

قلة من الفلسطينيين يملكون هذا الخيار بتنظيم احتجاجات مدنية محاطة بالإعلام العالمي، يعاملها الجيش الإسرائيلي بتهذيب، ليعودوا بعد ذلك إلى مساكن الطبقة الوسطى حيث يقيمون. تمنح قوات الاحتلال مواطنيها امتياز حماية لا تكلف نفسها عناء منحه للمحتلين غير المواطنين. إلا ان الاعتراف بحق التعبير، بهذه الحدود الضيقة، لا يبرر التخلف عن الاحتجاج على المظالم.

في تظاهرة أخرى، ذهب حوالى أربعين إسرائيلياً من القدس إلى الخليل للاحتجاج على النشاط الاستيطاني هناك. أوقفتنا الشرطة في منتصف الطريق، وكان ردنا أن نزلنا من الحافلات واعتصمنا في عرض الطريق قاطعين السير. لم تكن للشرطة القوة الكافية لإزاحتنا. كان الوقت حوالى الخامسة من بعد الظهر، لحظة رجوع العمال الفلسطينيين إلى منازلهم. وفي وقت قصير، تكدست السيارات في جانبي الاعتصام لتغطي مسافة كيلومترات عدة.

ما جرى لاحقاً كان مشجعاً. فقد توالى سبب الازدحام إلى مسامع العمال الفلسطينيين فنزلوا من الحافلات التي كانت تقلهم وانضموا إلى التظاهرة. كان عددهم حوالى خمسة آلاف أحاطوا بنا وأخذوا يهتفون شعارات مناهضة للاحتلال. عندها عمد أحد سائقي الحافلات منفعلاً بما شاهد، إلى توزيع عناقيد العنب الخليلي على المشاركين في التظاهرة، فيما تولى موسى ليبوفيتش، الجندي في الاحتياط، نقل الخطابات إلى العبرية عبر مكبر للصوت. بعد ساعات على هذا المنوال، انتهت التظاهرة بشكل سلمي.

لا داعي لإضفاء نفحة رومنسية على مثل هذه المشاهد. كان ذلك لقاءً بين طلاب وأتنلجنسيا يهودية يعودون بعده إلى حياتهم المريحة، وبين عمال فلسطينيين محكومين بالخضوع لصعوبات اقتصادية مدى الحياة. برغم عددهم القليل، كان المتظاهرون اليهود يملكون قوة الأفكار ورؤية للتعايش مع الفلسطينيين، وحداً معيناً من الكفاءة السياسية. كان أحدهم قد أصيب بجراح في هجوم إرهابي نفذه يهودي يميني متطرف في خلال تظاهرة سلمية قبل سنتين: ابراهام بورغ هو حالياً المتحدث باسم الكنيست.

مرّت عشرون عاماً على تلك المشاهد. منذ ذلك الحين، واتفاق أوسلو يحرك الرؤية الدافئة لهؤلاء المحتجين، رؤية مساواة واحترام متبادل بين مجتمعين في إسرائيل وفلسطين. كانت عملية ولدت وعاشت وأجهضت تحت وطأة الهجمات من قبل قوى سياسية في الطرفين، قوى ذات مطالب توسعية أو إلغائية كانت تواجه الحواجز. رجال يتسلحون بالكتاب المقدس يهود ومسلمون انشغلوا في <<تقنين>> الله ليصدروا فتاوى إلهية وهمية بخصوص اتفاقات بشرية. تنامت العنصرية والعنصرية الدينية إلى حدود بدا معها أي تغيير سياسي ملموس مستحيلاً.

بالإضافة إلى ذلك كان هناك <<مستغلو السلام>> الذين نظروا إلى عملية السلام، ككل، على أنها نقطة التقاء بين رأس المال الإسرائيلي والعمالة الفلسطينية. لا يمكن لعملية السلام أن تستمر إذا لم تشمل حق الفلسطينيين في الاستقلال الاقتصادي وفي رفع مستوى حياتهم. إن تحويل الضفة الغربية وقطاع غزة إلى منامة للعمالة الفلسطينية الرخيصة بإدارة إسرائيلية، والذي لا يعدو كونه نسخة محلية من اقتصاد السوق العالمي، لا يعني سوى إطالة غير مقبولة للتبعية الاقتصادية الفلسطينية.

يسألني بعض الأصدقاء من الولايات المتحدة الأميركية عما يمكن أن يكون ثمن السلام في الشرق الأوسط. جوابي الدائم هو ان باستطاعة غالبية الأفراد من الطرفين ان تتوصل إلى اتفاق أساسي في اجتماع خمس دقائق على فنجان قهوة، رغم ان الاتفاق الحقيقي على مسائل صعبة فعلياً، يمكن أن يتطلب فنجان قهوة آخر وبعض البقلاوة.

لكن اتفاقات السلام بطبيعتها جماعية وليست فردية. فالاتفاق الطوعي يتطلب دمل الجروح الاجتماعية في الطرفين وعملاً دؤوباً من الأشخاص الناضجين من رؤية الدماء المراقة. يمثل السلام التزاماً بالعدل والاحترام، أو انه على الأقل، يجسد التزام الجيران بالحوار المدني واللاعنف.

إذا حصل أن ألغي اتفاق أوسلو، مهما كان حجم ملاءمته، يجب ان يعاد إحياؤه تحت عنوان آخر. هناك في إسرائيل، اليوم، من بين اليمينيين المتطرفين، من يتحدث عن <<مجرمي أوسلو>> ويقترح محاكمة السياسيين صانعي السلام. لقد جرى تجريم للسلام يهدد المستقبل.

عندما تسير الدبابات وتنفجر القنابل، فهي الساعة لنتصدى معاً على الطريق ونرفض أن نكون مجرمين بحق السلام.